نموذج تطبيقي حول آليات التحليل البنيوي والتداولي في قصيدة "الفردوس المفقود" لأبي البقاء الرندي

أولا: الدراسة البنيوية

يرتكز التحليل البنيوي للخطاب الشعري على رصد أهم المكونات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية والمعجمية ومدى ترابطها لتجسيد المعنى دون استخدام السياقات الخارجية. ومن أهم سمات هذه المكونات في قصيدة الفردوس المفقود لأبي البقاء الرندي:

1- البنية الصوتية:

أ- الإيقاع الخارجي: وهو أهم ما يميز الشعر عن النثر، حيث بنيت هذه القصيدة على بحر البسيط الذي يتناسب مع دلالة الأسى والتحسر المهيمنة عليها، وكمثال على ذلك نقطع البيت الأول كالآتي:

لِكُلِّ شَيْءٍ نِهَايٌ إِذَا	مَا تَمَّ نُقْصَانُ		
٥١١ ٥١ ٥١١	٥١١ ٥١	١٥١ ٥١	٥١٥١
متفعلن	فاعلن	مستفعلن	فاعل

فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ			
٥١١ ٥١١	٥١١ ٥١	١٥١٥ ١٥١	٥١٥١
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فاعل

وكما هو ملاحظ أنه طرأت تغييرات على بعض تفعيلات البحر، وهذا ما يعرف بالانزياح الإيقاعي، انطلاقا من زحاف الخبن (حذف الثاني الساكن) فتحولت (مستفعلن) إلى

(متفعلن) و(فاعلن) إلى فعلن ، وكذلك علة القطع (حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ماقبله) فتفعيلة (فاعلن) تصبح فاعلْ.

وهذه التغييرات ربما مردها إلى وجود امتطرابات وتوتر.

- أما بالنسبة لحرف الروي (النون) فإنه يتسم بسمة جوهرية تتمثل في القوة التي تتلاءم مع الانكسار والضعف والأسى، أضف إلى ذلك أنها صوت مجهور يحمل دلالة القوة.

- وإذا مررنا بالقافية سَاتُو (٥١٥١) وجدناها مطلقة لأنّ رويها ورد متحركا يتبعه إشباع، ولعلها تحمل دلالة التنفيس عن هول الرزية وقوة الانفعال النفسي.

ي- الإيقاع الداخلي:

يتبدت القصيدة على تكرار كثير من الصوامت أهمها:

- النون: صامت، مجهور، لثوي لساني، أغن ....
- الميم: صامت، مجهور، شفوي، أغن .....
- القاف: صامت، مجهور، شديد، استعلاء، قلقلة .....
- الباء: صامت، مجهور، شديد، شفوي، انفجار .....
- السين: صامت، مهموس، أسناني، لثوي، صفيري ....
- الشين: صامت، مهموس، [illegible]، رخاوة، استفال، تفشي.

وكذلك الصوائت الطويلة متل:

- ألف المد: الدالة على الانفتاح الكبير، وياء المد الدالة على الانفتاح الضيق.

وعموما الجهر يتناسب مع دلالة القوة (قوة المصيبة وعظمتها وقوة الانفعال الذي ارتبط بالحقل المعجمي الدال على الأسى).

أما الهمس فارتبط بدلالة الضعف والانكسار النفسي.
- كما كانت نهاية الأبيات بمقطع طويل مقلق (سان، مان شان ....) كأنه لا أمل لاسترجاع الأندلس المفقودة.

2 - البنية الصرفية:
- بنيت القصيدة على نسبة معتبرة من الأفعال الدالة على الحركة. فالماضي للدلالة على التذكر (تمّ، شهد، سرّ، ساء، شاد ساس، حار، أبى، قضى، صار ....)
والمضارع للدلالة على الوصف والاستمرارية (تبكي، تزني تحوي، يلهي، يستغيث، يهتزّ ....)
- توظيف الأفعال الناقصة كان، وصار (الدالة على التحول) وكذلك الأفعال المعتلة الناقصة (رثى، هوى، بكى، سما، حوى، بقي، ألهى، سرى ....) وهذا ينسجم مع دلالة النقصان الواردة في البيت الأول (لكل شيء إذا ما تمّ نقصان).
- الأفعال المزيدة ارتبطت بدلالات أهمها:
الطلب: يستغيث (إضافة الألف والسين والتاء)
وهذا ينسجم مع دلالة الطلب والاستغاثة لنصرة الأندلسيين.
- المبالغة: يهتزّ (اهتزّ) على وزن افتعل، وقد يدلّ على المشاركة أيضا.
- أما الأسماء فدلت على الثبات والاستمرار، وخصوصا الأسماء المشتقة كاسم الفاعل (سابقة، غافلا، ماشيا، راكبين، حاملين....) فطالب النجدة والاستغاثة يتناسب مع أشخاص يقومون بأفعال متعددة. وكذلك صيغ المبالغة الدالة على الكثرة (فيّاض، ملآن، مِلك ....)

واللافت للانتباه أيضا استخدام صيغ الجمع بمختلف أنواعها، صيغة منتهى الجموع (كنائس، فجائع، مساجد، محاريب، نوافيس منابر، قواعد ...) وجموع القلة (أقطار، أركان، أحزان، أزمان...) وعموما، يدل الجمع بأنواعه على كثرة الأهوال والأشجان المرتبطة بسقوط الأندلس.

ثالثا: البنية النحوية

- تنوعت التراكيب النحوية في قصيدة الفردوس المفقود بين الاسمية والفعلية، وكان استخدامها متدرجا: اسمي (من البيت 1 إلى 3) فعلي (من البيت 4 إلى 5)، ثم العودة إلى اسمي (من 6 إلى 8)، فعلي (من 9 إلى 11)، اسمي (من 13، 14)، فعلي (من 15 إلى 17) وهكذا، فبناء القصيدة نحويا تراوح بين الاستقرار الاسمي والتحول الفعلي.
- استخدام الجمل الشرطية التي تربط السبب بالنتيجة في كثير من المواضع مثل: (لكل شيء إذا ما تم نقصان) ..... البيت الأول.
(من سره زمن ساءته أزمان) ..... البيت الثاني.
(يمزق الدهر حتما كل سابغة إذا نويت مشرفيا وحز مان ..البيت الرابع.
(إن كنت في سنة فالدهر يقظان) .... البيت الخامس والعشرون
(ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان) البيت 37.
(لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان) البيت الأخير
- استخدام الجمل الاستفهامية مثل: أين الملوك، أين منهم أكاليل أين ما شاده شداد، أين قرطبه .... ولعل الاستفهام يدل هنا على الحيرة والتعجب.
- استخدام الجمل النداءية طلبا للتحدة والاستغاثة: يا راكبين، يا غافلا...
- استخدام الجمل الحالية الدالة على الهيئة والكيفية: تبكي وهي جامدة، تزهى وهي عيدان.

- ومن أهم ظواهر الانزياح التركيبي في القصيدة: التقديم والتأخير خصوصا على مستوى الجمل الشرطية نظرا لأهمية النتائج في هذا المقام مثل:

يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

نتيجة ... سبب

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

نتيجة ... سبب

- تقديم المفعول به عن الفاعل نظرا لأهمية العنصر المقدم وهو جزيرة الأندلس في قوله: ذهى الجزيرة أم لاعزاء له.

- تقديم الخبر على المبتدأ في الجمل الاسمية مثل:

أين الملوك، أين قرطبة فالأصل الملوك أين، فاسم الصدارة أين كان في محل رفع خبر مقدم وجوبا.

- أما الحذف فيرد في بعض المواضع المرتبطة بأسلوب العطف مثل: وللدهر مسرات وأحزان فتأمل الكلام وللدهر مسرات وللدهر أحزان.

- ومن أبرز مظاهر الربط النحوي:

• الربط السببي القائم على أدوات الشرط إذا، إن، لو، وفاء السببية (أما بها العين في الإسلام فارتزأت).

• الربط الذي يفيد الجمع وهو الأوفر في النص انطلاقا من أداة العطف الواو.

- أما الارتباط فيكون معنويا انطلاقا من علاقات الإسناد (يمزق الدهر أين الملوك ..... والارتباط الإضافي (فجائع الدهر، خيال الطيف.. والارتباط الوصفي (الحنيفية البيضاء ....).

رابعا - البنية المعجمية والدلالية

تنوع المعجم الشعري في القصيدة ، ومن أهم مظاهره :

1 - الحقول المعجمية :

أ - حقل الأسى والحزن : [ساء ، يمزّق ، الصعب ، فجائع ، أحزان دهى ، هوى ، ارتزأ ، البكاء ، فراق ، مصيبة ، يدوي ، حيران ...]

ب - حقل الإسلام : [المساجد ، المحاريب ، الحنيفية ، إيمان ...]

ج - حقل الكفر : [الكنائس ، النواقيص ، صلبان ، كفر ، طغيان علج ...

د - حقل الأندلس : [قرطبة ، حمص ، شاطبة ، جيان ...]

ه - حقل الملوك : [شدّاد ، ساسان ، قارون ، سليمان ...]

وهذه الحقول كلها تخدم الدلالات الرئيسية في الموضوع المتمثل في التحسّر على ضياع الأندلس .

2 - العلاقات الدلالية :

ولعل أهمها علاقة التضاد الذي يجمع بين المتناقضات كيف كانت الأندلس ، ثم كيف صارت فيما بعد .

ومن أبرز التناذيات الضدية : (تمّ ≠ نقصان)

(سرّه ≠ ساءه) ، (الصعب ≠ يسهل) ، (كفر ≠ إسلام)

غافلا ≠ يقظان ...

إضافة إلى الترادف : (تبقى = تدوم) (الرزية = المصيبة) ...

والاشتمال الأندلس تتضمن : قرطبة ، حمص ، بلنسية ...

3 - الانزياح الدلالي : الذي يعرف بانقطاع الإحالة في تحليل الخطاب ويكون ناجما عن طريق الصور البلاغية المختلفة .

مثل: يمزق الدهر: شبّه الدهر بالحيوان المفترس الذي له أنياب (ذكر المشبه (الدهر) وحذف المشبه به (الحيوان) وذكر أبرز لوازمه يمزق). فهو تركيب استعاري.

المحاريب تبكي، فالبكاء يكون للحي لا للجامد.

تبكي الحنيفية، البكاء يكون للمحسوس لا للمعنوي (الحنيفية)

ثانيا: الدراسة التداولية: 1- السياق المقامي ومؤشراته:

1- يعدّ السياق المقامي أول خطوة يبتدهجها المحلّل في المقاربة التداولية، لأنه يسهم في إنتاج الخطاب الشعري.

ومن المعلوم أنّ هذه القصيدة (الفردوس المفقود) ارتبطت بمقام سياسي وتاريخي يتمثل في سقوط الأندلس بكامل أقطابها على يد الغزو الإسباني الدنس، فسقطت قرطبة في عام (633 هـ)، ثم بلنسية في عام (636 هـ)، وفي عام 646 هـ سقطت إشبيلية (حمص الأندلس).

وقد ندب الشاعر في قصيدته قواعد الأندلس (قرطبة وإشبيلية ومرسية وشاطبة وجيّان) وكلها سقطت بين عامي 635- 660 هـ.

وقد كان السبب المباشر للأندلس المعاصي والآثام والترف الذي ارتبط بالملوك والابتعاد عن منهج الله عزّ وجلّ فأصابهم الضعف والخذلان. فكانت هذه المرثية شاكية باكية لحال الإسلام والمسلمين.

- ومن أهم المؤشرات السياقية التي تسهم في تواصلية القصيدة

أ- الشاعر (المتكلم): أبو البقاء الرندي (601 هـ - 684 هـ) وهو من أبناء رندة قرب الجزيرة الخضراء بالأندلس وإليه نسبته.

عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وعاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت من الداخل والخارج في بلاد الأندلس وشهد ~~(معظم)~~ سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الإسبان وحياته التفصيلية تكاد تكون مجهولة، ولولا شهرة هذه القصيدة وتناقلها بين الناس ما ذكرته كتب الأدب. وهو من حفظة الحديث والفقهاء. وقد كان بارعا في نظم الكلام ونثره. وقد أجاد في المدح والغزل والوصف والزهد إلا أن شهرته تعود إلى هذه القصيدة الرثائية.

ب - المتلقي:

هذه القصيدة موجهة لكل القراء بصفة عامة لأخذ العبرة منها. وهي مخصصة للعرب الذين تخاذلوا عن نصرة إخوانهم بالأندلس نتيجة غفلتهم (يا غافلا وله في الدهر موعظة).

ج - الزمان:

زمن الحادثة مرتبط بسقوط أقطاب الأندلس ما بين 635 - 660هـ.

أما زمن تأليف القصيدة كان عام 1267م بالتقريب.

أي حوالي 664هـ.

د - المكان: وهو الأندلس، حيث شهد سقوط معظم أقطابها.

هـ - الموضوع: رثاء أقطاب الأندلس: إشبيلية، قرطبة، مرسية شاطبة، جيان ... وتحسر الشاعر لحال الإسلام والمسلمين.

و - وظائف اللغة:

ارتبطت هذه القصيدة التواصلية بوظيفتين مركزيتين وهما:

أ- الوظيفة التعبيرية: التي تبرز انطلاقا من انفعالات الشاعر الظاهرة، والمرتبطة بالمعجم الشعري الدال على التحسر والأسى مثل: البكاء، الكمد، الأحزان... رغم غياب ضمير الأنا.

ب- الوظيفة الإفهامية: المرتبطة بالعرب المسلمين الذين تخاذلوا عن نصرة إخوانهم الأندلسيين بدءا من البيت الخامس والعشرين الذي يحتوي على نداء الاستغاثة وطلب النجدة. وهي مرتبطة بضمير المخاطب (مادا التقاطع في الإسلام بينكم) (أعندكم نبأ من أهل أندلس؟)

وهناك وظائف أخرى فرعية مثل: الوظيفة المرجعية

فالقصيدة ذات مرجع ديني (البدء بحكمة، إضافة إلى قوة عقيدة الشاعر نظرا لتفقهه في أمور الدين)

وكذلك مرجع تاريخي وسياسي مرتبطين بسقوط الأندلس وأسباب ذلك.

والوظيفة الشارحة تعين على تفسير بعض العلامات في القصيدة رغم شفافيتها لأنها تعالج موضوع الرثاء الذي يتطلب لغة بسيطة. فكلمة الجزيرة مثلا توحي بأن الأندلس سابقا يطلق عليها جزيرة الأندلس.

والوظيفة التواصلية المرتبطة بالقناة تظهر للقارئ في تعامله مع المدونة مكتوبة، ولكنه أثناء تناولها يتمثل بالحدث كأنه وقع الآن.

أما الوظيفة الجمالية فتخص بنية القصيدة وهي تربية بالظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية والأسلوبية كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

3 - أفعال الكلام:

أ. يعدّ الفعل الإنجازي أهم مكوّن من مكوّنات الفعل الكلامي. فهو يرتبط بالدلالة المتضمّنة داخل الملفوظ.

وانطلاقا من المقام الخاص بالقصيدة والعنوان، ندرك أنّ الفعل الإنجازي العام هو فعل تعبيري بالدرجة الأولى يدل على الحسرة. فالبنية السطحية تبدو إخبارا "الفردوس المفقود" أو "تاء الأندلس" أما البنية العميقة ربما تكون أقرب للفعل التعبيري الدال على التحسّر الذي دلمسه في البنية السطحية انطلاقا من التضاد بين كلمتي العنوان

الفردوس: هي الأندلس ومكانتها / المفقود: المنائح.

وربما تؤول العنوان من حيث البنية العميقة أيضا على أنه فعل توجيهي المراد منه المسارعة لنصرة الأندلسيين.

ب- أما الأفعال الإنجازية داخل القصيدة فتنوعت، ومن أبرزها:

* أفعال إخبارية وصفية: كما في البيت 13، 14، 15

فجائع الدهر أنواع متنوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان.

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان.

وهي أفعال مباشرة الغرض منها الوصف وتصوير المشهد.

* أفعال توجيهية: مثل الحكمة في أول القصيدة، ظاهرها إخبار أما الغرض منها أخذ العبرة والموعظة. وهنا النمط من الأفعال غير مباشر.

* أفعال تعبيرية دالة على التحسّر منها غير المباشرة مثل:

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلاّ نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان

فظاهر العبارات وصف أما باطنها يحمل أسى وحسرة على ما حلّ بالإسلام والمسلمين.

وكذلك أساليب الاستفهام أين الملوك .... أين قرطبة ....

هي توجيه ~~~~ على مستوى البنية ~~العميقة~~ السطحية و تغيير عن الأسى على مستوى البنية العميقة.

وكذلك النداء كان غير حقيقي في قوله

يا غافلا وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

فالغاية من هذا النداء الاستغاثة وطلب النجدة.

وهناك أفعال تعبيرية مباشرة نفهم من البنية السطحية مثل:

ألا نفوس أبيّات لها همم أم على الخير أنصار وأعوان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

وعموما فالأفعال التعبيرية هي المهيمنة على النص، حتى وإن كانت بنيته السطحية تميل إلى الإخبار تارة وإلى التوجيه تارة أخرى، لكن باطنها ربما يوحي إلى الوجع والألم والحسرة على فقدان الأندلس.

4- الإشاريات: تنوعت الإشاريات في القصيدة خدمة للسياق المقامي وتوضيحه، ومن أهمها:

أ- الإشاريات الشخصية: تظهر من خلال أسماء بعض الملوك شدّاد، ساسان، قارون، دارا، كسرى، سليمان.

وكذلك الضمائر المتعلقة بالمخاطب اسأل (أنت)، يبيدكم أعدكم، اتقِ يا عباد الله

ب- الإشاريات الاجتماعية:

* الدالة على صفة رسمية: الملوك.

* الدالة على الألفة والمودة: إخوان، أم، طفل

ج- الإشاريات الزمانية:

الأمس: يدل على الأندلس قبل سقوطها (الرفاهية).

اليوم: يدل على الأندلس بعد السقوط.

دار الزمان: الزمان عموما.

د- الإشاريات المكانية:

الأندلس، جيان، شاطبة، قرطبة، حمص ....

الدار: دار الدنيا

البلاد: بلاد الأندلس، الجزيرة: جزيرة الأندلس.